لا يحتاج العقلُ السليم أن يوغل في التحليل كي يُدرك أنّ هزيمة الكفاح الوطني الفلسطيني، حتى الآن، هزيمةٌ للأمة العربية كلها؛ فكأنّ القضية الفلسطينية مرآة كاشفة، تعكس صعودَ الأمة في زمنٍ وتطامُنَها المبينَ في زمن آخر. والصورة هذه لا افتعال فيها ولا تعمّل: ففلسطين، قبل سايكس ـ بيكو، كانت جزءاً من بلاد الشام؛ والتقدُّم الثقافي ـ السياسي العربي الحديث جعل من فلسطين محوراً له؛ والشعوبُ العربية لم تلتفَّ حول القضية الفلسطينية، في زمنٍ مضى، إلا لأنها رأت في فلسطين المغتصبة قضيةً عربية.

١٩٤٨ ـ ١٩٩٨

هزيمة فلسطين، أمْ هزيمة الأمة العربيّة؟

فيصل درّاج

وفي مقابل «المسألة الفلسطينيّة» التي امتزج فيها العنصرُ العربيُّ بالعنصر الفلسطيني، وبأشكال عدة، كان هناك، ولا يزال، المشروعُ الصهيونيُّ، الذي تُرجعه العقولُ الضعيفةُ إلى العنصر اليهودي. فإنْ تأمَّل العقلُ السليمُ هذا المشروعَ، بدا مشروعاً غربياً ـ استعمارياً تكسوه طبقةٌ خفيفةٌ من الملامح اليهودية.

ولقد تعيّنت «المسألةُ الفلسطينيةُ» حتى اليوم، وستتعيّن حتى الأبد، بتفاعل هذه العناصر الأربعة التي تكثّف، في التحديد الأخير، سطوةَ الغرب وانتصارَه من ناحية، وهشاشةَ القوى العربية المواجِهة وهزيمتَها من ناحية ثانية. ولذلك فإنّ من سخفِ العقل وفسادِ المحاكمة تجريدَ العنصر الفلسطيني من قوامه العربيّ، أو تحريرَ العنصر الصهيوني من حوامله الغربية التي تبدو استعماريةً خالصة في لحظة معينة، وتُخْبر عن نزعةٍ صليبيةٍ متجددة في لحظة أخرى.

في بداية هذا القرن، وحين كان المشروعُ الصهيونيُّ يقصد مجتهداً «أرضَ اليهود التاريخية»، كما جاء على لسان نابليون ذاتَ مرة، كان الوضعُ العربيُّ موزَّعاً على الغفلة والتفكك والضعف الشديد. فلقد كان القائدُ الوطني مصطفى كامل، الذي اكتفى بتأمل أحوال بلاده، يطلب العونَ من الزعيم الصهيوني هرتزل آملاً دعمَه في مواجهة السيطرة الإنجليزية، فيجيبه الأخيرُ قائلاً: «سليلُ الفراعنة الذين اضطهدونا يَطْلب مساعدتي، أنا اليهوديَّ!». ولم يكن مصطفى كامل وحيداً في تيهه؛ فقد كان عربٌ آخرون يلتمسون المساعدة من الإنجليزي لورانس، ضابطِ المخابرات البريطانية، الذي بدا صديقاً وجسراً إلى الاستقلال العربي، وهو يلاحق فلول الجيش العثماني بقوات عربية، قبل أن يعلن كرهَه الشديدَ للعرب لأنّ بعضهم يشبه في بشرته الإنسان الأبيض، أو يكاد.

كان في المشهد السياسي ـ الثقافي العربي، في بداية القرن، ما يكشف عن تيه وضياع. فبعض العرب يحلمون بالاستقلال عن الدولة العثمانية المريضة ويتمسكون بخلافةٍ إسلامية لا تقطع الجسور بين العرب والعثمانيين؛ وعربٌ آخرون يندّدون بالسيطرة العثمانية ويَنْشدون سُبُلَ الخلاص لدى الدول الأوروبية. ولعلّ الرجوع إلى بعض المواقف الفكرية يكشف عن رؤية مقيَّدة، تلمس طرفاً من الحقيقة وتخْطئ أطرافاً أخرى. ويظهر هذا الارتباك لدى نجيب عازوري، وهو يُبْصر أخطار المشروع الصهيوني في كتابه **يقظة الأمة العربية**. غير أنّ عازوري، الكاره للصهيونية كرهاً شديداً يساوي مقتَهُ للسيطرة العثمانية المدمرة، يَفْصل بين الغرب والمشروع الصهيوني، إن لم يكن يرى في الغرب الاستعماري طريقاً للتخلص من اليهود والعثمانيين في آن. ولا يتحرر الفلسطينيّ النبيهُ روحي الخالدي من الارتباك تماماً، فيشرح المشروعَ الصهيونيَّ وغاياته وأدواته وآلية عمله، دون أن يبصر العلاقةَ البيّنةَ بين الصهيونية والمشاريع الاستعمارية الأوروبية الحديثة، وكأنّ المشروع الصهيوني مكتفٍ بذاته أو يظفر بالدعم الغربي بسبب كفاءته وقدرته على الإقناع. ومع أنّ هيرتزل لقي حظوةً كبرى حين زار السلطان عبد الحميد وأنعم عليه بـ «نيشان كبير»، فإنّ الصحفي الفلسطيني نجيب نصّار لم يدرك أنّ السلطة العثمانية مستعدةٌ لبيع فلسطين، كعقار بسيط لا أكثر. ولن يختلف الأمر لدى محمد رشيد رضا، رجلِ الدينِ المدافعِ عن فلسطين، حين قام بقراءة الحقّ اليهودي المجزوء في فلسطين، اعتماداً على قراءة القرآن الكريم، معتقداً أنّ قراءة النص القرآني بشكلٍ سديدٍ كفيلةٌ بالوصول إلى درب الظفر والرشاد.

في حدود ذلك الواقع العربي ـ ومكوّناتُهُ: سلطةٌ عثمانيةٌ متهالكة، ومخابراتٌ بريطانية، ومثقفون يَنْشدون الخلاص بأدوات فرنسية، وقائدٌ مصريٌّ يطلب العون من زعيم صهيوني ـ كان على درب «الهجرة الصهيونية» إلى فلسطين أن يكون سالكاً ومعبَّداً، وأن يفضي الضعفُ إلى عجزٍ جديدٍ. وقد تجلّى هذا العجزُ في معاهدة سايكس ـ بيكو، التي دشَّنتْ تمزيقَ المشرق العربي بعد أن مزقتِ السيطرةُ الاستعماريةُ مغربَه؛ وفي وعد بلفور، الذي سارعتْ في توليده نتائجُ الحرب العالمية الأولى. وهكذا أدخلت القوى الاستعماريةُ الوطنَ العربيّ في نفق جديد، بعد أن ظن أنه خرج سالماً من النفق العثماني. ومع أنّ السيطرة الاستعمارية دفعتْ بالشعب العربي إلى طور كفاحي وطني جديد، فإنّ هذه السيطرة ـ بعد تمزيق أوصال العالم العربي ـ دشَّنتْ بدايات النزاعات القطرية اللاحقة التي جعلتْ كلَّ شعبٍ عربي يقاتل من أجل تحرير الحيز المكاني الذي حدَّد الاستعمارُ حدودَه وتخومَه. ومما لا شك فيه أن الشعوب العربية تبادلت التضامن والعواطف والأحلام، دون أن تعي مخاطر تمزيق الأوصال العربية، الأمر الذي جعل كلَّ طرفٍ يقاتل محتلَّه الأوروبيَّ بمعزل عن الطرف العربي الآخر، أو على مبعدة من تصوّرٍ كفاحي جماعي يؤكّد الإرادة الكفاحية الموحدة. ولذلك كان طبيعياً أن يلقى الفلسطينيون دعماً عربياً متفاوتاً دون أن يتحول الدفاعُ عن فلسطين إلى قضية عربية جماعية. فجاءت هبّةُ البراق وتراجعت؛ وجاءت الثورةُ الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ لتحصد الهزيمة، رغم التضحيات الكبيرة، ولتفتح الباب واسعاً لانتصار المشروع الصهيوني عام ١٩٤٨. ولعلّ تأمُّلَ ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ يعطي صورة مبكرةً للفجوة الواسعة المتوالدة بين نزوعات الشعب العربي، ووظائفِ السلطات العربية التي عيّنها الاستعمارُ وكان عليها إعادةُ إنتاج علاقات الهزيمة والتجزئة. فبقدر ما شكّل التضامنُ الشعبيُّ السوريّ واللبناني علاقةً داخليةً في الكفاح الفلسطيني الثوري (مَن يذكر كتابَ رئيف خوري: **ثورة الفتى العربي**؟)، تحوّلتِ السلطاتُ العربيةُ التابعةُ إلى علاقة داخلية أخرى، تواجه العلاقةَ الأولى وتناقضها.

وقد تستطيعُ الذاكرةُ الشعبية، التي لم يجتثّها الموتُ بعدُ، أن تسرد أشياء كثيرةً عن عزّ الدين القسّام، وعن السوريين واللبنانيين الذين رأوا في فلسطين امتداداً

لأراضيهم المتوارثة واستُشْهدوا في سبيلها. غير أنّ كتب التاريخ تذكر أيضاً أشياء كثيرة عن الزعامات العربية والمفترضة التي تناشد الثائرين الفلسطينيين التعقلَ و«الثقةَ» بالعدالة البريطانية!

* * *

ظهرتْ إسرائيل كما لو كانت كابوساً عارضاً، ينقشع لا محالةَ ساعةَ اليقظة العربية القادمة من دون تأخير. وردّاً على الاستعمار ومشاريعه، جاء جمال عبد الناصر بالمشروع القومي الأكثر جذريةً وصدقاً وشرفاً في القرن العشرين، وجاءت معه الأحزابُ والقوى القومية العربية المختلفة. وخاض عبد الناصر معاركه القوميةَ الكبرى في بور سعيد واليمن والتأميم والوحدة مع سوريا، وأيقظ في الانسان العربي الشعورَ بالغيرة القومية والتطلع إلى مستقبل مختلف. وكانت فلسطين في كل هذا حاضرةً وكاملةَ الحضور، ذلك أنّ عبد الناصر أدرك ـ ببصيرته الثاقبة ـ أنّ القتال من أجل فلسطين دفاعٌ عن معنى الوجود المصري وعن مستقبل القومية العربية كلها. يقول عبد الناصر في **فلسفة الثورة**: «لما بدأتْ أزمةُ فلسطين كنتُ مقتنعاً في أعماقي بأن القتال في فلسطين ليس قتالاً في أرض غريبة، وهو ليس انسياقاً وراء عاطفة، وإنما هو واجبٌ يحتِّمه الدفاعُ عن النفس».

جاء عبد الناصر، وهو الفلاّح الذي سقته الشمسُ المصرية، ليثأر لـ ٥٠٢٢ فلاحاً فلسطينياً سقطوا في ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، وليمدّهم بنصر «متأخر»، حجبته عنهم البنادقُ البريطانيةُ القاتلةُ والنصائحُ العربيةُ الرسمية التي تؤازر الموتَ الأول وتَنْصره. غير أنّ القوى الاستعمارية التي خلقت المشروعَ الصهيونيَ ورَعَتْه، كان عليها أن تحطّم كلَّ قوةٍ عربية تهجس بحصار إسرائيل، فضربتْ عبد الناصر في حرب السويس، ثم استجمعتْ طاقتها كلَّها وضربتْهُ مجدَّداً في حزيران ١٩٦٧، محقِّقةً طموحَ «جون فوستر دلْس»، الذي رأى في الناصرية ظاهرةً شاذة «يجب أن تختفي مرةً وإلى الأبد». ومثلما كانت هزيمةُ ثورةِ الفلاحين في فلسطين مقدمةً لانتصار المشروع الصهيوني بعد عقدٍ من الزمن تقريباً، كانت هزيمةُ المشروع القومي الناصري مقدمةً لانتقال المشروع الصهيوني من هزيمة الفلاحين الفلسطينيين إلى هزيمة الأمة العربية كلها، إن أمكن. فالساداتية، كما الاجتهاداتُ الساداتية الماضية والمعاصرة، لم تكن ممكنةً دون هزيمة عبد الناصر، مثلما أنّ غطرسة إسرائيل اللامترامية لم تكن ممكنةً دون نتائج حرب الخليج الثانية والسياق العالمي الذي أحاطها.

وبسبب هزيمة المشروع القومي العربي الأكثر صدقاً في هذا القرن، أي الناصرية، لم يكن بوسع «المقاومة الفلسطينية» الحالمةِ بتحرير فلسطين أن تذهب بعيداً. فهي لم تكن، بالمعنى التاريخي، ردّاً على هزيمة الناصرية، بل كانت صوتاً شاحباً يذيع نهاية الناصرية دون أن يدري. فالقيم والمعايير والشعارات التي دعا إليها عبد الناصر انهزمتْ بهزيمته، تاركةً الفضاءَ العربي يفرض قيماً ومعايير أخرى، كان على المقاومة الفلسطينية أن تأخذ بها بعد أن أسكرها الدعمُ النفطيُّ تارةً وقيّدتها المراجعُ السياسيةُ الفقيرةُ المسيطرةُ تارةً أخرى. وبسبب ذلك، فإنّ أبناء المخيمات، الذين تعلَّموا حملَ السلاح وإطلاقَ الرصاص، سيلحقون بإخوتهم الفلاّحين القدماء...، مع فرق جوهري: وهو أنّ الفلاح الذي استُشْهد قديماً عثَرَ على قبر ومقبرة، بينما لم يحصل المقاتلُ الأخيرُ إلا على ما يَدْفن أحلامَهُ وأبناءه في آن. وبدا التاريخُ وكأنّه يراوح مكانه، بل بدا وكأنه يتّجه إلى الوراء، بعد أن ذهب الذين يقاتلون من أجل الوطن وأعقبهم مَنْ يقاتل في سبيل مصالحه الخاصة لا أكثر. ومثلما بدتْ بدايةُ القرن مريضةً ـ يختلط فيها الاستبدادُ العثماني بخدمات لورانس، والاستقلالُ العربي بالنصائح الإنجليزية والفرنسية ـ بدت نهايةُ القرن أكثر مرضاً، بعد أن تداخلت النزعاتُ القطريةُ العربية والمصالحُ السلطويةُ الضيقة وأصواتُ الاعتدال وسطوةُ الجنرال شوارزكوف، الذي لا يكترث بأيّ شيء عربيّ فوق الأرض، لأنّ ما يهمه موجودٌ تحتها لا أكثر ولا أقلّ.

* * *

ومع أنّ الجنرال الأمريكيّ مشغولٌ بالنفط العربي ومقاتلٌ من أجله، فإنه ـ وكما أظهرتْ طائراتُه ـ مشغولٌ أيضاً بكل ما يهدِّد إسرائيل، وبكل ما يجعل الرأسَ العربي لا يرتفع فوق الأرض ولو أشباراً قليلة. وواقع الأمر أنّ الولايات المتحدة لا تسعى فقط إلى تدمير القوى العربية

أدرك عبد الناصر، ببصيرته الثاقبة، أنّ القتال من أجل فلسطين إنّما هو «واجبٌ يحتِّمه الدفاع عن النفس»

المناوئة لمصالحها ـ وهو أمرٌ تباعد ولم يعد راهناً ـ بل تعمل أيضاً على تقويض الوجود العربي كله. وتجلّى هذا الهدف في تدمير الجيش العراقي، وتدميرِ الشروط الموضوعية التي تسمح للعراق باستئناف حياة إنسانية عادية، وكأن الهدف هو التخلّص من الشعب العراقي كله بعد أن تمّ التخلص من الطاقات والإمكانيات الفعلية العراقية. ولعل القراءة الصاحية للضجّة الأمريكية المستمرة حول الأسلحة الكيميائية العراقية تدلّل على أن الولايات المتحدة لا تعمل على تدمير الأسلحة العراقية هذه، سواء أكانت وهميةً أم حقيقيةً، بل تخطِّط لضرب الشعب العراقي بأسلحة كيماوية أمريكية، متخذةً من فرضياتها عن «الخطر العراقي» قناعاً يحجب نواياها الإجرامية المستمرة التي تقلِّص عددَ سكّان العراق يوماً بعد يوم. وظهر المخططُ الأمريكي واضحاً، ولايزال محتملاً وممكناً اليومَ وغداً، حين قدَّمتْ واشنطن الاحتياطاتِ الضروريةَ لإسرائيل، في حال الهجوم على العراق؛ وقد تَضمَّنتْ هذه الاحتياطاتُ الكماماتِ والمصلَ الوقائيَّ. فبرهنت أميركا من جديد أنها ترى في إسرائيل الجنسَ البشريَّ الوحيدَ الجديرَ بالحماية، تاركةً الشعوبَ العربيةَ المجاورة للعراق لمصيرها المخذول، سواء خَنَقَتْها الغازاتُ السامّةُ المحتملة، أم خنقتها أدواتٌ ووسائلُ أخرى.

ومثلما تمّ التنكيلُ بالعراق، والتمثيلُ بأوصاله، وإرجاعُهُ إلى بلد هامشي مهزوم يعاني أهلُه الجوعَ والمرض، تتابع الولاياتُ المتحدة خنقَ ليبيا بناءً على تهمة ملفّقة، مقرِّبةً المصيرَ الليبي من المصير العراقي. وممّا يثير الأسى والتأملَ أن ينتهي شعبُ العراق إلى الجوع، بعد أن كان العراقُ في نهاية السبعينات «بنكَ العالم الثالث» كما كان يقال آنذاك، وأن يقترب الشعبُ الليبيُّ من حدود الفاقة، بعد أن وصل الدخلُ القوميُّ الليبيُّ في منتصف السبعينات ـ نسبةً إلى عدد السكان ـ إلى أعلى دخلٍ في العالم! ولا تختلف الصورةُ كثيراً لحظةَ الاقتراب من الوضع في السودان أو الوضع في الجزائر...

ومهما كانت الأسبابُ التي قوَّضتْ هذه الدول ـ وهي أسبابٌ متعددة ـ فإنّ أوضاعها في النهاية تكشف عن ظاهرتين أساسيتين على الأقل: الظاهرة الأولى هي أنّ هذه الدولة لا تستطيع ـ وقد لا يَستطيع غيرُها أيضاً ـ أن تساعد القضيةَ الفلسطينية، لأنها غير قادرة أصلاً على مساعدة شعوبها. بل إنّ ضعف هذه الدول وتفكُّكَها دفعاها إلى تفريط متواتر بتلك القضية، وإلى دفع قادة هذه القضية إلى أن يفرِّطوا بها أيضاً. ولعلّ الحضور الدبلوماسيّ العربي في جنازة إسحق رابين مرآةٌ لما آل إليه الوضعُ العربيُّ الرسميُّ في تآكله وتطامنه؛ فكأنّ بعض النظم العربية تعبِّر عن جدارتها بالحياة، لا عن طريق إشباع حاجات شعوبها، بل عن طريق تأييد كلّ ما يرتبط بإسرائيل والتطيُّر من كلِّ ما يمسّ الشعبَ الفلسطيني. أما الظاهرة الأخرى، وهي مكمّلة للأولى وامتداد لها، فتتجلى في عجز معظم هذه الأنظمة عن تأمين الوحدة المجتمعيّة، بسبب الانهيار شبه الشامل لحقوق المواطنة، وأولُها: حقوقُ المواطن الاقتصادية، ثم تحصينُ الفقر باستبداد مكين، وصولاً إلى برنامج مدرسي يعلِّم التلميذَ القراءة والكتابة ويَسْلب منه المحاكمةَ العاقلة. ووضع كهذا لا يجعل الأنظمة المذكورة عارية أمام إسرائيل وسياستها المتغطرسة، بل يدفعها إلى التماس «العطف الإسرائيلي»، علَّ ذلك يؤمِّن لها استقراراً بديلاً عن الشرعية التاريخية التي هي أساسُ كلِّ استقرار حقيقي.

وفي حدود سلطات عاجزة تعيد إنتاج سلطتها بوسائلَ أكثرَ عجزاً، يتعيَّن دورُ السلطة بإنقاذ ذاتها عن طريق إهلاك المجتمع. ويتكشف هذا الهلاكُ في السلب، والنهب، وتبديدِ الإنتاج الوطني، وإلغاءِ الدستور، وتدميرِ القيم، وتتفيهِ العلم والمعرفة، ونشرِ ثقافةٍ جماهيرية تَنُوس بين الجهل القاتل والقدرية الفادحة. وتكشف هذه الوقائعُ عن حداثة عربية مبتذلة وكاذبة، لأنّ اختصار فاعلية المجتمع إلى حركة السلطة التي تقمعه يَرُدُّ إلى ما قبل العصور الوسطى، أو يردُّ إلى تاريخ قديم لم يكن فيه تاريخُ المجتمع إلا تاريخ تناوُبِ الجهاز السلطويّ على موقع القرار في السلطة. وبهذا المعنى، يكون اغتصابُ فلسطين علاقةً داخلية في ممارساتٍ سلطوية تغتصب الشعوبَ العربية جميعاً؛ وكأنّ الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين لا يستوي ولا يستقيم إلا إذا قامت الأنظمةُ العربيةُ التابعةُ باحتلال الإرادات العربية جميعها.

* * *

الولايات المتحدة تخطّط لضرب العراق بالأسلحة الكيماوية الأميركية، ومن هنا الضجّة حول الأسلحة الكيماوية العراقية

يبدو الواقعُ العربيُّ اليوم متقهقراً وقد التبس فيه الأفق. ذلك أنّ مفهوم «المستقبل»، الذي احتلّ موقعاً واسعاً في كلّ وطني عربيٍّ مناهضٍ للصهيونية، آخذ بالانحسار، إن لم يزامل الانحسارَ ارتباكٌ شديد. فلقد كان مفهومُ المستقبل يُشْتَقُّ، في زمنٍ مضى، من برامج الأحزاب السياسية ومن مشاريع ثقافية تؤازر هذه الأحزاب أو تتحاور معها... أيْ أنّ مفهوم المستقبل كان مرتبطاً بقوى اجتماعيةٍ حيةٍ وصاعدةٍ، تتحدث عن الوطنِ والاستقلالِ وأمّةِ العرب ومضارعةِ الغرب واستئنافِ المجد التليد. واليوم يتكاثر الحطامُ، وتلتمس الأَنقاضُ عونَ الأنقاض المجاورة، إلا من إراداتٍ قليلةٍ تعرف الغايات ولا تعثر على الوسائل التي تحقِّق بها هذه الغايات. فالأحزاب السياسية ـ وبالمعنى الصحيح للكلمة ـ أصبحتْ طيفاً من أطياف الماضي، تهتمّ بالاسم والمقرّ وتراتُبِ الألقاب، مذكِّرةً بالنوادي أو بطقوس بعض العائلات القديمة. أما غالبية المثقفين فقد توزعوا كما تقتضي الأحوال: بدءاً بالسوق ومراجِعِهِ في الانتشار والتسليع، وصولاً إلى جلساتٍ أليفة في ردهات السفارات الغربية، حيث التطامنُ أمام «الملحق الثقافي» الأمريكي يبرَّر بالدفاع عن «حقوق الإنسان والانفتاح على العصر»... وكأنّ تاريخ «البيت الأبيض» هو تاريخ الدفاع عن حقوق الإنسان، أو كأنّ الانفتاح على العصر يُلزِم «العقلَ المنفتح» بإلغاء عقله. وواقع الأمر أنّ إدمان اللقاء مع «الملحق الثقافي»، على نحو ما يجري في بعض العواصم العربية، لا يضيف إلى السطوة الأمريكية شيئاً، بل يعبِّر عن هشاشة خلقية ومعنوية ووجدانية فادحة، لدى مثقفين من المفترض أنهم «ضمير الأمة» (وهم كانوا يقولون ذلك على أية حال)، أو يُفترض أن يكونوا أداة نقديةً تدافع عن الصحيح وتنتقد الخطأ.

* * *

ولن يكون الوضعُ الفلسطيني أحسنَ حالاً، ما دامت حالةُ مرآةً للأحوال العربية التي حَالَ لونُها وجوهرُها وقوامُها منذ زمن طويل. ففي صحيفة **الكرمل** التي أسسها نجيب نصار في عام ١٩٠٨ دعا هذا الكاتب الفلسطيني، بعد أن شعر بجدية المشروع الصهيوني، أصحابَ النوايا الطيبة من الفلسطينيين إلى القيام بعملٍ منظَّمٍ يواجه المشروعَ الصهيوني ويجابهه. وكان نجيب عازوري، بدوره، يدعو العرب إلى إنقاذ الأرض الفلسطينية. وما حلم به الأخير قام وانحطم، وما دعا إليه الأول فَقَدَ معناه منذ زمن طويل. ففي زمن نصّار كان المتعاملون مع السياسة حفنةً من الأعيان وملاّك الأراضي وأبناءِ العائلات المرموقة، وكان هناك الفلاحون الذين يقاتلون ويتركون أغراضَ القيادة لـ «السياسي» الذي يعيش في المدينة. ومع أنّ الفلسطينيين عرفوا الحياة السياسية، بالمعنى المدني، في حركاتٍ قومية واسعة مثل «حركة القوميين العرب» و«حزب البعث» وأحزاب أخرى، فإنّ المآل السياسي الفلسطيني امتثل لسياقه العربي، وأعاد بعد ستين عاماً صورةَ الأعيان القديمة. وإذا الأمر لمن الأمر له، بعيداً عن إرادات «العوام» التي توزَّعتْ على فئات مختلفة، وفقاً لأحوال الزمان، فتجسدتْ في الفلاحين ثم جماهير المخيمات ثم أطفال الانتفاضة، دون أن تغادر المعاييرُ السياسيةُ دلالالتِها القديمةَ التي لا علاقة لها بالسياسة في شيء.

ولأنّ الأمر لمن الأمر له، فقد عرفتِ الحياةُ السياسيةُ الفلسطينيةُ، قديماً وحديثاً، كلَّ ما ينقض السياسةَ ويتعارض معها. وظهر هذا في سلسلةٍ من المشاريع السياسية ينفي بعضُها بعضاً، من دون تبريرٍ نظريٍ لما أُخذ به ونُفيَ لاحقاً ولما تمّ نفيُهُ قبل الأخذ به. وآية ذلك هي العناوين التالية: «تحرير الفلسطين»، «الدولة الديمقراطية العلمانية»، «الدولة الثنائية القومية»، «السلطة الوطنية وعاصمتها القدس»،... ومثلما أنّ الحديث عن الفجر والضحى والظهر يُفضي بالذروة إلى العصر والغروب، فإنّ تراجُعَ الأهداف الفلسطينية انتهى معلَّقاً في السديم الذي يتعلق فيه، حيث الحوارُ الفلسطيني ـ الإسرائيلي الصاخب يدور حول ١١٪ من أراضي الضفة الغربية، فيتجاوزها قليلاً، ويعيدها الإسرائيليون إلى رقمٍ أقل، إلى أن يأتي الوسيطُ الأمريكي فيضبط الأمر بلغةٍ أمريكية وعيونٍ إسرائيلية.

وقد تشرح مقولة «البيروقراطية الرّثة» بعضَ وجوه المسار الفلسطيني، حيث تأكيدُ البيروقراطية لا ينفصل عن تأكيد المصلحة الذاتية. غير أنّ وجوهاً أخرى تستدعي تخلخل الوعي وهشاشته، وكأنّ التاريخَ يمرّ صامتاً لا

فرَّق السياسيّ الفلسطيني قبل النكبة بين الادارة الإنجليزية والصهيونية، واليوم يختار السياسيُّ الفلسطينيُّ الإدارة الأميركية حَكَماً

يراكم معرفةً ولا يعطي درساً. فلقد حرص السياسيُّ الفلسطيني، قبل النكبة، أن يفرّق بين الإدارة الإنكليزية والصهيونية، وأن ينصِّب الأولى حكماً بين الطرفين، في الوقت الذي كان فيه الإنجليزيُّ يمدّ الصهيونيَّ بكل وسائل الانتصار. وبعد عقود عدة سيقع السياسيُّ الفلسطيني، وبعد «الثورة»، في الهوة ذاتها، مختاراً هذه المرة الأمريكيَّ حكماً ووسيطاً وراعياً للسلام. وكان هذا السياسي، في الحالين، يقتفي آثار الضبع ويصل إلى مغارته، كي يلتهمه مرتاحاً ودون مشقة.

وكان الفلسطيني، في معظم الحالات، يكرر درساً تعلَّمه من «الأشقّاء الكبار». فمثلما وضع القادةُ العربُ ثقتَهم ببريطانيا العظمى، في زمن لورانس وبعد رحيله، وضعوا ثقتهم لاحقاً بالبيت الأبيض. بل إنّ الفكر السياسي العربي المريض قاد حملةً ضاريةً، بعد هزيمة حزيران، كي ينتزع الروحَ الأمريكية من المهد الإسرائيلي، أو كي يُقصي الإسرائيليَّ عن المهد الأمريكي الأليف. غير أنّ ذلك الاندفاع، الذي لا تعقُّلَ فيه، كان يَقْرض الموقفَ العربيَّ شيئاً فشيئاً، لأنّ الأمر الحقيقي لا يحيل على «التشاطر» بل على تغيير ميزان القوى. ولعلّ ما نراه اليوم من دعاة «التطبيع والسلام» هو امتدادٌ للتهافت العربي التقليدي، وقد بلغ أعلى مراتبه صفاقةً وأشدَّها تضليلاً. و«جماعة كوبنهاجن»، التي تسعى إلى تشكيل حزبٍ سياسي في القاهرة، تقول بـ «غزو الرأي العام الإسرائيلي»، عن طريق طمأنة الإنسان الإسرائيلي وتبيانِ رغبةِ الإنسان العربي بالسلام.

لكنّ هذه الجماعة المنفتحة على «الاستراتيجيات الكبرى» تنسى في حديثها «الحداثي» أشياء كثيرةً: إنها تنسى، أولاً، أنّ الأنظمة العربية لا تمتلك السلاح النووي الذي تمتلكه إسرائيل، والذي يجعل السيفَ الإسرائيلي مسلَّطاً فوق عنق الشعوب العربية. وهي تنسى، ثانياً، أن الولايات المتحدة، كما إسرائيل، تسعى إلى نزع السلاح العربي كله رغم أنّه لا يرقى كماً ولا كيفاً إلى مرتبة السلاح الإسرائيلي؛ ولذلك تحتفظ إسرائيل بمئات القنابل النووية بينما يطارَدُ العراقُ صباحاً ومساءً من أجل حفنة من الأسلحة التقليدية. وهي تنسى، ثالثاً، أنّ فرض السلام الحقيقي والشامل على إسرائيل يستلزم قوةً عربيةً سياسيةً موحَّدةً وفاعلة، الأمر الذي يعني أنّ الدفاع عن السلام الحقيقي يستلزم رفضاً شاملاً للسلام على الطريقة الإسرائيلية. ويكشف هذا النسيانُ المتعددُ الوجوهِ عن روحٍ استشراقية مكينة، أو عن احتقارٍ معلنٍ للشعوب العربية. فلو كان «أنصار السلام على الطريقة الإسرائيلية» يحترمون الإنسان العربي حقاً، لقاموا بقلب غاياتهم، ولأجهدوا أنفسهم في فهم واقع الإنسان العربي الذي حُرم الطمأنينةَ منذ زمن طويل، لا بسبب الترسانة الإسرائيلية التي قصفتْ بغدادَ وتونسَ وما بينهما، بل بسبب سياساتٍ سلطويةٍ ترى فيه كياناً نافلاً لا يُستشار في «السلم» ولا يستشار في الأوقات التي تشبه الحرب ولا تشبهها.

* * *

وفي مقابل هذا الواقع يقف الصهيونيُّ في واقع آخر. فإسرائيل التي توقَّع هرتزل قيامَها بعد خمسين عاماً من مؤتمر بال، قامت بعد خمسين عاماً تماماً. وبعد قيام إسرائيل، جاء الانتصارُ الثاني الأكبر في تاريخ الحركة الصهيونية ـ كما قال عاموس عوز ـ وهو يشير إلى اتفاق أوسلو، الذي فتح أمام السلطات العربية أبوابَ الاعتراف بإسرائيل، دون أن يفتح أمام الشعب الفلسطيني أيَّ أفقٍ ذي دلالة. ورغم تمسُّك البلاغة العربية والإسلامية بالقدس، فإنّ القدس تسير إلى أن تكون وتظلّ عاصمةً أبدية للدولة العبرية؛ بل إنّ القدس العربية تنحسر يوماً بعد يوم ليتحول العربُ فيها ـ وبعد عقد من الزمن ـ إلى قلة هامشية تعيش على أطراف المدينة. والأمر كله، بالتأكيد، لا علاقة له بـ «العبقرية اليهودية»، بل بالتزام الغرب ـ وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية ـ بكل المطالب الإسرائيلية في ألوانها جميعاً.

يقال إنّ «على من يريد أن يتسلّق الجبل ألاّ يكون حافي القدمين». والواقع العربي لا يزال يجافي هذه الحكمة البسيطة، لا لأنه لم يعثر على حذاءٍ مناسب بعدُ، بل لأنه لا يعرف موقع الجبل الذي يذهب إليه.

دمشق (فلسطين)

«أوسلو» فتح أمام الأنظمة أبواب الاعتراف بإسرائيل، ولم يفتح أمام الفلسطينيين أيّ أفقٍ ذي دلالة